* * *

ذهب الصبى الا علاقة راحل ... يبغي الذهاب بها ونستبقيها
كان الشباب صحيفة فطويتها ... وطويت دنياي الحبيبة فيها
كثرت مساوي الحادثات فشوهت ... ما كان من بهجاتها تشويها
لاأعذل الايام ان قصائدي ... ملأ العوالم السن تطريها
الشعر عندي آيتان فآية ... توحى إلي وآية أوحيها (١)

احمد محرم

بدء الحديث

أسباب عظمة أميركا

وما يجب ان نستفيده منها

* أذاك زمن ضائع * قال بعض الاصدقاء (ان الجامعة أضاعت اربع سنوات خارج مصر . فلو بقيت هنا لاستفادت أضعاف ما استفادته من رحلتها الى البلاد الاميركية) ولكن هل يقال هذا القول للطالب الذي يدخل مدرسة ويقضي فيها اربع سنوات يتلقى في اثنائها احد العلوم او الفنون . أو الطبيب الذي يتمّ درس صناعته ثم يقصد أوروبا ليصرف في احد مستشفياتها زمناً طويلاً يدرس فيه درساً عملياً ما درسه في مدرسته درساً نظرياً . أو السائح الذي يجوب القفار وينفق الدرهم والدينار ويعاني مشاق

(١) بيتك هذا وحده يعدل قصيدة لجماله وحسن نظامه . فأذن لي بان اختم المقال بهذا الثناء على فضلك وحسن ظنك . ولا تعدّ من سوء الأدب أن صديقاً لك احسنت ظنك فيه واتحفته بشيء من نفيس شعرك اجتراءً وواجه بعض ابياتك الحسان بنقد او معارضة . فان هذه هي الطريقة الوحيدة التي امكنني معها نشر قصيدتك لنشر فضلك وشكرك لحسن ظنك بصديقك .

السفر في الليل والنهار ادراكاً للغاية التي من أجلها خرج يضرب آباط المطايا او يركب سفن البحار وقطر البخار . كلا فان جميع هؤلاء لم يضيعوا اوقاتهم سدىً . ومن حسن حظ الجامعة انه اتيح لها ذلك السفر البعيد الذي (وسع أفقها) وأراها من ذلك الكون العظيم ما رأت وأسمعها ما سمعت بعد معيشتها الى ذلك العمر في زوايا الشرق الساكنة

قضينا خارج مصر نحو اربع سنوات جلنا في اثنائها في ولايات فرنسا امّ الحرية والجمهورية . وايطاليا أمّ الفنون والجمال . وأميركا الشمالية بلاد العجائب والغرائب . وكندا ملتقى المدنية الانكليزية والفرنسوية . وسحنا مدة اربعة أشهر في ١٢ ولاية من الولايات الاميركية (١) فزرنا كثيرا من مكاتبها ومتاحفها ومدارسها واندیتها ومعاملها ومزارعها ومناجمها ودرسنا شؤون بعض مدنها الكبرى والصغرى درس طالب يأخذ العلم عن استاذ خبير وراقبنا روح الشعب في المدن والقرى مراقبة مستفيد خليّ الذهن يدرس ليتعلم لا ليتحكم . ورأينا في الشوارع والاسواق والمعامل والمخازن — رأي العيان — تلك الاكتشافات والاختراعات الحديثة التي نكدّ الذهن ونتعب البصر والفكر لنستخرج أخبارها من المجلات والجرائد ونحن جلوس في الشرق وراء الدواة والقلم . وشاهدنا عظمتها التجارية والصناعية والزراعية التي لاتجتريء على منازعتها فيها أمة من الامم . وخدمنا في أثناء ذلك اخواننا المهاجرين من الشرق الى تلك البلاد البعيدة الخدمة التي قدرنا عليها فصار اصدقاء الجامعة فيها يعدّون بالمئات واصبح اسمها بينهم هناك في كل شفة وفم .

نقول هذا القول لقراء الجامعة في الشرق الذين لاموها لانتقالها الى تلك البلاد البعيدة ومفارقتها البلاد الشرقية . وغرضنا من بسطه هنا ان نقول لحضراتهم ما قاله الشاعر (وكان شغلي عنك بك) فاننا برحلتنا الى اميركا قد خدمنا نفسنا وخدمناهم وسيرون أثر ذلك في المجلة باذن الله . فلم يضع اذاً ذلك الزمن عليهم او عليها

فلندرس شؤون اميركا ولما كان القراء يتوقعون ان يجدوا في كل جزء من الجامعة بعد عودتها من اميركا دروساً ومباحث في مدنيتها وعجائبها وغرائبها وشؤونها

---

(١) وهي ولاية نيويورك وكنتاكت ورود آيلند وماسشوستس وماين ونيوهمشير (فضلاً عن ولايتي كندا المتاخمتين لها وهما كوبك واناوى) وبنسلفانيا واوهايو واندیانا والنويز

العمومية والخصوصية اي الشؤون التي تشارك اميركا سائر الامم فيها والشؤون التي انفردت واستقلت بها دون غيرها فقد شرعنا ابتداءً من هذا الفصل في كتابة مقالات متسلسلة تشرح حالة تلك الامة العظيمة وتظهر أسباب عظمتها وتدل على مايجب ان نأخذه عنها وما يجب تركه اما تركاً دائماً او الى حين ... ولسنا نزعم اننا بما ننشره نكتشف اميركا اكتشافاً جديداً فانها قد اكتشفت منذ زمن بعيد ... واليك مؤلفات سياح اوروبا فانها كثيرة في هذا الباب . على انه من الغرابة اننا لم نقرأ كتابين لكاتبين كتبا في هذا الموضوع الا ورأينا اختلافهما في الحكم على اميركا ورجالها وأشيائها . فمنهم من يمدح ومنهم من يقدح والمنصفون قليلون في هذا كما هم قليلون في كل أمر . اما نحن فسنسلك في هذا الموضوع سبيلاً يرضي اولئك الاضداد ويجعل للقارىء سبيلا الى الاستقلال والاستدلال . وذلك ان نروي اراء الفريقين ونضم اليها ما ارشدتنا اليه اختباراتنا الخاصة فيصبح القارىء وهو قادر ان يحكم بينها بنفسه بحسب رأيه وميله وتربيته .

ان تلك المراجل الهائلة التي تغلي في الطرف الآخر من الكرة الارضية وسط جلبة هائلة هي اعظم جلبة عملية صدرت عن جمعية بشرية في الكرة الارضية — لهي جديرة بالدرس . وابناء الشرق الساكن الهادىء احوج الى هذا الدرس من غيرهم وخاصة في هذا الزمان الذي زحف فيه الغرب على الشرق بخيله ورجله فاما ان يدوسه ويمر في سبيله على جثته كما مر المتأخرون على جثث الامم التي تقدمتهم وساروا في سبيلهم لا يلوون على شيء واما ان يجاريه الشرق ويقتبس نشاطه وقوته وجرأته ونظامه ويسير معه كتفاً الى كتف في سبيل المستقبل فيسلم ويقوى على الحياة (التي تستحق ان تدعى حياة) . وفي اعتقادنا انه ليس في المدنيات الحاضرة مدنية اصولها وقواعدها هي الدواء الشافي لداء الشرق الدفين كالمدنية الاميركية المبنية على تآخي العناصر والجنسيات في ارضها تآخياً فعلياً واتحادها اتحاداً حقيقياً محا الفروق من بينها وجعلها امة واحدة تحت ظل (العمل) الدائم المستمر الذي يشغل المرء عن كل شيء حتى عن نفسه وينقي جو فكره من كل شاغل لايدعي (عملا . وقوة . وحركة . ونشاطاً . وكسباً) وينفره من الجدل العقيم الذي ماتسلط على امة الا افسد امورها طبقاً لما جاء في الحديث (اذا غضب الله على قوم سلط عليهم الجدل) .

وا اسفاه . اين روح العصر ومقتضياته وحاجاته من الروح التي تصورها لنا كتب الدين والآداب والاخلاق الكريمة . اين ما يدرسونه في مدارسنا مما نراه في ميدان الحياة . ان الشرق راقد بسكون على آثاره واطلاله الدينية القديمة البالية وشعاره الاستكانة

والهدوء والاحلام وهو يعلم ابناءه في المدارس ما كان ابناء الغرب يتعلمونه في القرن السابع عشر والثامن عشر من المبادىء والكتب التي تضعف نفوسهم وابدانهم وتجعل جوّ افكارهم بمعزل عن جو الحياة الحقيقي — بينما اهل الغرب يسيرون وشعارهم القوة والنشاط والاقدام قبل كل شيء ويغرسون هذه الصفات في نفوس أبنائهم بدروس عملية واختبارات شخصية ورياضات بدنية وتربية مستقلة تجعل الفرد قابضاً على زمام نفسه عالماً بجهاد الحياة ومقتضياته وحاجاته قبل دخوله ميدان الحياة ومستعداً لهذا الجهاد اتم استعداد. ونحن لا نقول ان هذه التربية افضل من تلك ولا تلك افضل من هذه فان البحث في هذا بحث في الشرائع الادبية والاجتماعية ومبداء الحياة وغايتها والحكم فيها حكم بين مبدأين يتنازعان بني الانسان منذ زمان وهذا موضوع ليس هنا موضعه . ولكنا نقول ان روح العصر يقتضي الآن تلك (التربية القوية) وان الشرق اذا كان يكره الموت ويريد الحياة فعليه بازاء الحركة الوضعية التي ملأت آثارها الدنيا وتسلطت (بحق او بغير حق) على جميع شؤون الحياة ان يُقدم على تلك التربية . واذا كانت مذاهبه الدينية (او غيرها) هي التي تحول دون تربيته التربية الجديدة المطلوبة وتجعل نفوس ابنائه ضعيفة منصرفة عن العمل الى الجدل وتفني ما فيها من نشاط وقوة اذ تحولها احلاماً واوهاما وتمنع ابناء الوطن الواحد من ان يتحدوا ويعيشوا كامة واحدة جميع قوى أبنائها منصرفة الى زيادة منافعهم ومرافقهم بدل انصرافها الى منازعة بعضهم بعضاً منازعة تضعفهم جميعاً ولا يستفيد منها الاّ الأجنبي — فعليه (اي الشرق) ان يضع الدين جانباً في مكان مقدس محترم لا يتعداه — ولا اكرم من الكنائس والجوامع — وينبذ بلا شفقة ولا رحمة كل عثرة تعترضه في هذا السبيل وان استهدف لأعظم المقاومات . ولا نضمن بعد هذا ان يكون الكون افضل مما هو الآن ولكنا نضمن ان الافراد يكونون اقوى ونكون نحن الشرقيين اقدر على منازعة ضيوفنا وجيراننا البقاء والمعيشة بجانبهم في بلادنا دون ان يأكلونا أو يستغرقونا . وهب ان تلك التربية القديمة افضل واجمل فاننا احوج الآن الى هذه التربية الجديدة التي هي سلاحنا الوحيد في الدفاع عن انفسنا وحفظها . والاّ فكل صراخنا وعويلنا لا يفيدنا شيئاً مادام الحق للقوة في هذا الطور البشري . والله أعلم متى يصبح الحق وهو قادر على ان ينتصر بنفسه دون ان يعتمد على قوة تنصره غير قوته الذاتية .

فلندرس اذاً معاً مبادىء المدنية الاميركية التي هي الآن اشد المبادىء البشرية جمعاً بين القوة والنشاط والعمل والحركة . المبادىء التي هي الآن (استاذة) النشاط

في العالم أجمع ولديها يقف الاوروبيون انفسهم حيارى مدهوشين . ندرسها لا لنعجب بكل ما فيها فان لها سيئات كما لها حسنات ولكن ندرسها لنستمد من روحها وحي النشاط والقوة الذي امتازت به ونحن الآن في هذا الطور من مدنيتنا (او ابتداء مدنيتنا) في حاجة الى هذا الوحي كما كنا في ماسبق في حاجة الى ذاك . ولو ادرك اليوم نيتش مدنية اميركا ودرسها بنفسه درساً دقيقاً لظنّ ان القوم في كثير من مسائلهم انما يعملون بمبادئه ولجعل بطله (زاراتوسترا) الهائل ينتبأ ان الانسان الذي صوّره (فوق الانسان) ودعا الى ايجاده في جميع كتبه سيكون منبته في الولايات المتحدة . . . اذا استمرّ ارتقاؤها مطرداً

وصف شعري ولكن قبل ذلك :

يقولون لي صفها فانت بوصفها خبير — أجل عندي باوصافها علم

وحيث وجهنا السؤال هنا شعراً فلنجعلن الجواب شعراً ايضاً . . . وهي ابيات نظمناها في اثناء سياحتنا في الولايات المتحدة بين جبالها واوديتها وسهولها وحزونها ومدنها وقراها فانظر الى معاني الابيات لا الى الفاظها لان النظم هنا كنظم كل من اجترأ على الشعر وهو ليس من أهله فنظمَ قصيدة كانت (بيضة الديك) العمر كله .

عجْ بالجبال ولا تعجْ بالوادي ان شئت رؤية هذه الامجادِ
واركبْ لها قطر البخار فقد مضى عصر النياق وصوت ذاك الحادي
العيس بادت والطلول عفتْ فما يُلفى لها من نادبٍ أو هادِ
واطلب اليها ان تطير ولا تقل (مهلا فانك سائر بفوائدي)
الوقت مالٌ والزمان زمان ركض لا زمان تخنث ورقادِ
وتداعبٍ في (الرقمتين) و(حومل) و (السقط) أو في الندب والتعدادِ
الوقت وقت ارادةٍ صماء تصـــرع كل معترض سبيل جهادِ

* * *

ولقد صعدتُ الى الجبال أرى الورى واقيس حالهمُ بحال بلادي
فبدت لي (الارض الجديدة) (١) مثلما تبدو المدينة من ذرى منطادِ
وتمثلت لي بين اتلانتيكها ذاك العجاج وبين ذاك (الهادي) (٢)
كعوالم من غير دنيانا بدت تزري ببابل أو بذات عمادِ

(١) الارض الجديدة اميركا (٢) الهادي الاوقيانوس الباسفيكي

شعبٌ عظيم هائـل متفرق في واسع الاغوار والانجـاد
مدن كما انتثرت نجوم القبة الزر قاء او كالرمـل في التعداد
والله لا ادري أأسهـل ان اعـدّ بلاد هـذا الشعب عـدّ سداد
او ان اعدّ شعوبه (١) وكلاهما صعبٌ وفيه حـيرة المرتاد
في الشرق بيروت وقاهرة ولكـن كم هناتلقى(٢) من الاضداد
في الشرق لبنان وحيد انمـا كم ههنا من شامخ الاطواد
في الشرق ارضٌ قـدستْ بنبوءةٍ ظهرتْ بها قدماً وغاب الهادي
وهنا أراضٍ قدّستْ بالاهة الحـريـة القصوى وهـديٌ بادِ
هذي شرائعنا الجديدة فانظروا آثارهـا يا معشر الزهـاد
شرع جديد لست ازعم انه ابهى وأجمل من شرائع عاد (٣)
لكنني لا استطيع اذا رأيت جميله في البرّ والاسعاد
ونظام عيش الناس فوق سهولة الكسب الجزيل وأمن كل معادي
ووداد أقوام يؤالف بعضهم بعضاً بلا ضغنٍ ولا احقـاد
ان أُنكر الشمس الجلية في الضحى واقول خير الشرع شرع الفادي(٤)
او شرع ذاك المرسل الغازي الذي ملأ الورى قسطاً وحسن ايادي(٥)
او شرع ذاك الصالح المقطوع في حرش يسائل ربه وينادي (٦)
مات القديم فكفنوه فما له ما بيننا من رجعةٍ ومعادِ
الارض تحتاج (الارادة والعزيمة والنشاط) وليس وحيَ الدين والارشاد (٧)
فبها ارتقتْ هـذي البلاد وانها مرقاة كل تمـدن وبلاد
هذا كلام نيتش ان نيتش كان مقـوّم المعوجّ والمنئـادِ
في زعم بعض الناس اما مـذهبي فيه فابقيـهِ الى ميعادِ

﴿ اسباب عظمة اميركا ﴾ اول شيءٍ يتبادر الى الذهن هذا السؤال وكم من مرة القاه علينا بعض الادباء في الولايات المتحدة . وهو : « ماهي الاسباب الرئيسة التي جعلت

(١) جميع اجناس البشر موجودة في الولايات المتحدة (٢) اي هي تلقى (٣) اي الشرائع القديمة كقدم عاد (٤) المسيح (٥) محمد (٦) بوذه (٧) هذا الكلام منظوم عن لسان الفيلسوف نيتش لا عن لسان الناظم

اميركا في مائة سنة في المنزلة التي بلغتها ولماذا اختلفت مدنيتها عن مدنية اوروبا مع ان الاميركيين اوروبيون اصلاً . ومن اين جاءوا بتلك الصفات المدهشة صفات النشاط البالغ حده والقوة العملية التي ليس مثلها قوة حتى في وطنهم القديم نفسه (اوروبا) . وبعبارة أُخرى ماهي الاسباب الخفية التي جعلت اميركا اميركا كما نراها الآن)

على ان الجواب عن هذا السؤال جدير بان يكون في خاتمة مباحثنا في اميركا وشؤونها لانه عبارة عن اجمال لجميع مدنيتها . ولكننا قدّمناه خاصةً لنبسط للقاريء ذلك الاجمال قصد ان يلمّ بخلاصته اولاً تأييداً للنظريات التي نشرناها في ما تقدم

تعرو مريد الكلام عن اسباب عظمة اميركا في مقالات مختصرة حيرةٌ حين شروعه في بسطها . ذلك لان الكلام عنها يتناول الاسباب والاسباب من شؤون الكتب والمجلدات . فنكتفي بالاشارة الى اهم تلك الاسباب

١ — واول تلك الاسباب ثروة الارض في الولايات المتحدة ونريد بالارض هنا (ما على سطحها وما تحته) اي خصب التربة والمعادن . فان الطبيعة خصتها من سان فرنسيسكو حتى نيويورك (١) ومن شيكاغو الى تكساس بخصب زراعي ومعادن مدفونة لم تخص بها ارضاً سواها . واذا قيل ما سبب هـذا التخصيص فالجواب ان سببه الفواعل الجيولوجية والارض لا تزال عذراء واكثرها غـير مأهول لم تمد اليه يد الانسان بعد خلافاً لارض اوروبا التي ضعفت وهزلت لكثرة العمل فيها وكادت تنفد منها معادنها . فانه في بعض النواحي كولاية بنسلفانيا المشهورة بكونها بلاد المعادن يكفي في استخراج الغاز من الارض ان تغرس فيها اسطوانات معدنية فيجري الغاز منها . ومنابع البترول التي اغنت ركفلر وشركاءه اشهر من ان تذكر وهي في الارض كانهار تجري على عمق يتراوح بين ١٠٠ و ٩٠٠ متر تحت سطح الارض وتنساب في اسطواناتها المصنوعة لها على مسافة مئات من الاميال جارية الى مخازن الشركة . وبجانب ينابيع الغاز وينابيع البترول معادن الفحم على جميع انواعـه والذهب والفضة والقصدير والرصاص والنحـاس الخ . وليس ظهر الارض باقل ثروة من بطنها . فقد شاهـدنا في مكتب الحكومة الاستعماري في منتريال (كندا) قمحاً ارتفاع سوقه كارتفـاع الانسان . وخصب الارض في ولايات كاليفورنيا واوهايو ولوزيانا وتكساس امر مشهور . وحسبك زراعة القطن الاميركي المشهور في لوزيانا

(١) اي من شاطئها الغربي في الاوقيانوس الباسفيكي الى شاطئهـا الشرقي في الاوقيانوس الاتلانتيكي

وتكساس الذي تعتمد عليه معامل اوروبا ويرقص بورصاتنا في مصر وتجارها وسماسرتها ومن التفّ حولهم تارةً الفالس وطوراً البولكا . وحيواناتها ومواشيها متعددة الاجناس كثيرة التوالد في مراعيها الخصيبة المتسعة التي لا يدرك الطرف آخرها . واحراشها هائلة لسعتها وكثرتها وضخامة اشجارها وحسبك منها الاشجار المشهورة في كاليفورنيا بان عمرها ثلاثة آلاف سنة وقد عاصرت اليونان والرومان الاقدمين (١) وانهارها اعظم انهار في الدنيا

ففي ارض اميركا مجموع المادة الاولى الضرورية لثروة الامة وعظمتها . فما يعوز سكانها لينهضوا ويعظموا ؟ لا يعوزهم الا همة وخبرة . وقد تمت لهم كما ترى في مايلي

٢ — كانت طائفة البيورتين اوّل من هاجر من أوروبا الى اميركا فراراً من الاضطهاد الديني ورغبةً في ان يعيشوا مستقلين بعاداتهم وشرائعهم في ارض ليس فيها لاحد سلطة عليهم . ثم لما عمروا المدن وقطعوا الغابات وانشأوا الحقول وصارعوا الطبيعة والحيوانات الوحشية اخذ ينضمّ اليهم كل من ضاقت به أوروبا لاشتداد الفقر فيها . فالمهاجرة الى اميركا كان اصلها امرين . الاول الفرار من الاضطهاد الديني والثاني ضيق اوروبا عن اهلها وفقرهم . وغنيٌّ عن البيان ان الذي ذاق عذاب الاضطهاد الديني ينفر منه وهذا اصل تأسيس التساهل الديني في اميركا . فان أولئك السذج الكريمي الاخلاق الذين فضلوا احتمال النفي والعذاب على الرجوع في معتقداتهم كرهوا ان يجترموا نفس الجريمة التي اجترمها وطنهم الاول وافادهم اختبارهم فيه وهذا منشأ التساهل الديني الاميركي . وقد قلنا ان السبب الثاني الذي دفع المهاجرين الاولين الى المهاجرة هو الفقر وطلب الرزق لضيق وطنهم الاول بهم فنشأ عن هذا انهم انصرفوا بكليتهم الى العمل في دار هجرتهم وتركوا المنازعات القديمة رغبةً في السعة والكسب . فالنقيصتان اللتان كانتا سبب هجرتهم كانتا ايضاً من اعظم اسباب نهضتهم ووحدتهم

٣ — وكان المهاجرون الاولون الى اميركا خليطاً من الانكليز والفرنسويين والالمانيين والاسكوتلانديين والايرلنديين والايطاليين والنمساويين الخ .. وكل واحد منهم يحمل في نفسه فضائل ونقائص بني جنسه . الاّ ان اختلاط دمائهم بالزواج أولد منهم نسلاً جديداً بعيداً عن النسل الاوروبي . وكان العنصر الانجلوسكسوني كثيراً بينهم فاتخذ

(١) اسمها عندهم (بيك تريس) اي الاشجار الكبرى ولكن اسمها العلمي
wellingtonia او Sequoia gigantea

نسلهم كثيراً من اخلاقه الجدية وثباته في العمل . ثم انهم بلغوا اميركا وهي صلعاء عذراء فكان على الواحد منهم ان يكون حطاباً يقطع الاشجار لينشيء حقلاً ومزرعة يعيش فيها وبعد ذلك يحرث الارض و يزرعها ومرتاداً يذهب لاكتشاف ارض جديدة له وجندياً لمحاربة الوحوش التي تسطو عليه وعلى مزرعته واللصوص الذين يطمعون في سلبه وتاجراً لبيع حاصلاته الخ. فكان الواحد يعمل صنوفاً كثيرة من الاعمال التي توزَّع عادة على كثيرين في الهيئات الاجتماعية المنتظمة وهذا الجمع بين اعمال عديدة أنشاء في ذلك الجيل ونسله قوة جديدة لم تكن له من قبل . ولما كان ذلك الجيل قد اقتبس من اوروبا وطنه الاول جميع اختباراتها وطرق معيشتها أخذ ينفذ في وطنه الجديد تلك الاختبارات والطرق التي كان قد اقتبسها و يزيد عليها مايراه

٤ — وكان البناء في وطنه الجديد سهلاً . اولاً لان المادة الاولى التي تنشأ الامم بها ونعني ثروتها الطبيعية موجودة بغزارة في الارض كما تقدم وثانياً لانه ليس في تلك الارض تقاليد ومنازعات واختلافات سياسية او دينية تحول دون البناء على سنن العقل والعدل حسب مصلحة الباني ورأيه . وبينما كان الشعب الاميركي يبني و يعمل ولا تقليد يعارض عمله وبناءه كانت اوروبا تتنازعها الأحزاب وأغراضها والمذاهب وتقاليدها والحكومات وتخاصمها والثورات الداخلية والحروب الخارجية . ألا ترى ان الحكومة مفصولة عن الكنيسة في اميركا منذ زمان وقد انفصلت بلا ضوضاء ولا نزاع . ولكن لما فصلت الحكومة عن الكنيسة في فرنسا منذ بضعة اعوام كادت الاحزاب تخرب فرنسا ولا يزال النزاع في هذه المسألة مستمراً (راجع منشور الاساقفة الفرنسويين في الشهر الماضي)

٥ — وارض اميركا واسعة فانها تعول الآن ٨٥ مليون نسمة وهي قادرة على ان تعول ٢٥٠ مليون نسمة . فان مساحة ولاية تكساس وحدها أكثر مساحة من فرنسا وليس فيها الاَّ جانب منها مأهول ومزروع . وقد حسبوا فوجدوا ان لكل عشرة انفس في اميركا كيلو متر مربع من الارض مع ان مساحتها اضعاف اضعاف مساحة فرنسا او انكلترا مثلاً ولا يسكن في الكيلو متر من ارض فرنسا اقل من ٧٥ نفساً وفي انكلترا للكيلو متر المربع ١٤٠ نفساً هذا مع كون عدد سكان كل من انكلترا وفرنسا نصف عدد سكان الولايات المتحدة . فبقي اذاً ان الارض التي يمكن ان يتمتع بها ٢٥٠ مليون نسمة ملقاة بين ايدي ٨٥ مليون نسمة فقط فهي تزيد عن حاجاتهم وهذا سبب من أسباب سعتهم .

٦ — ولما كانت الارض تحتاج الى السكان هذا الاحتياج لتعميرها واستثمارها كانت

المهاجرة اليها قائمة على قدم وساق من جميع اقطار العالم . ففي كل عام يدخل الى اميركا من المهاجرين مليون نفس وزيادة . وبعض الولايات الاميركية تنفق الوفًا من الريالات على الاعلانات في الجرائد لتجتذب المهاجرين الى ارضها وتخصهم بامتيازات كانقاص اجرة سفرهم اليها في السكك الحديدية وسهولة ادخالهم في الجنسية الاميركية وما أشبه . وحسبك ان تقف على تأريخ عمران مدينة شيكاغو لترى العجب من هذا القبيل . كان عدد سكان مدينة شيكاغو في سنة ١٨٣٧ نحو اربعة آلاف نفس . وفي سنة ١٨٧٠ بلغوا ١٠٠ الف نفس . وفي سنة ١٨٩٠ جاوزوا مليون نفس واليوم كادوا يبلغون مليوني نفس . اي ان عددهم زاد في اربعين سنة عشرين ضعفًا فبعد ان كان ١٠٠ الف اصبح مليونين . فتأمل . وهذه المهاجرة من أعظم اسباب عمران اميركا .

٧ — قد خطر لنا في ذات يوم ونحن في اميركا ان نكتب فصولاً عنوانها (الامور التي تحبب اميركا الي والامور التي لاتحببها الي) وكان في نيتنا ان نجعل في مقدمة الامور المحببة فتح اميركا ذراعيها للمهاجرين اليها من جميع أقطار العالم على شرط ان يكونوا اصحاء الابدان والعقول ومحبين للعمل فلا يكونوا عالة على خزينتها بعد دخولهم بلادها . ولا تكتفي بان تفتح لهم ذراعيها بل تتخذ اصغرهم كاكبرهم واحقرهم كاعظمهم ابنًا لها تكتنفه بحمايتها وجنسيتها اذا اقام خمس سنوات في ارضها وطلب ذلك اليها . فيصبح وهو المهاجر الصغير الحقير ابنًا للبلاد شريكاً لروزفلت وتفت وبراين وركفلر في حقوق الحكومة والامة له مالهم وعليه ما عليهم في وسط (كله غريب ولا غريب فيه) لان جميع الامة اصلها غريب . وهذا هو السبب في حب الغرباء لاميركا وحرصهم على مصالحها بعد دخولهم في جنسيتها كحرص الاميركيين انفسهم . ان روزفلت هولندي الاصل وكفى . وجميع ابناء الغرباء الذين يولدون في اميركا حتى ابناء الانكليز والفرنسويين والالمان انفسهم يتعلقون باميركيتهم ويحبونها . فسقيًا سقيًا لك ايتها الارض العظيمة الهائلة التي فعلت ما لم تقوَ الآلهة على فعله في الارض وهو مزج الجنسيات والعناصر المختلفة وتأليف أمة واحدة منها . ويحق لاميركا الفخر بمدارسها وعلي الخصوص مدارسها الابتدائية الالزامية التي هي وحدها فعلت هذه المعجزة . واذا كان احد في الشرق يعارض في ادخال هذه الطريقة المدرسية اليه (على شرط ان يراعى فيها جميع اصولها مراعاة مطلقة) فما هو بناصح ولا مريد له الخروج من وهدته القديمة

٨ — ان اتساع البلاد يقتضي كثرة الايدي التي تعمل فيها لتتمكن من القيام بحاجاتها

ولما كان عدد السكان قليلاً بالنسبة الى اتساع الارض وكثرة حاجات السكان فقد نشاء عن ذلك ارتفاع الاجور حتماً . ورب عامل في عزق الثلج في شوارع نيويورك اجرته ثلاثة ريالات فى النهار (١٥ فرنكاً) وخمسة ريالات في الليل . وارتفاع الاجور يجتذب المهاجرين من جميع الاقطار ويمكنهم من أن يعيشوا في شيء من السعة معيشة نظيفة منظمة وان يتزوجوا ويربوا اولادهم ويعلموهم . فارتفاع الاجور يعمر اميركا من جهة ويرقي شؤون العملة من جهة أخرى . ثم كم من الاغنياء ككرنيجي وغيره اصبحوا من اصحاب الملايين وكانوا منذ سنوات عملة وأثروا باحدى طرق الاثراء الكثيرة هناك . وفكرة الاثراء العاجل تملأ مخيلة كل من يعيش في اميركا للسبب الذي تقدّم . وعندهم في هذا الصدد عبارة مشهورة وهي (انني اتوقع تشانش) اي فرصة . وارتفاع الاجور مع هذه الفكرة هما السبب في ضعف شوكة الاشتراكية في اميركا وعدم تأثير الاشتراكيين في الشعب ذلك التأثير الهائل الذي لهم في اوروبا وخاصة في فرنسا والمانيا حيث العملة في فقر مدقع . فرب عامل في فرنسا او المانيا اجرته في الشهر اربعون فرنكاً ينفق منها هو وزوجته واولاده مع ان اصغر واحقر عامل في اميركا لا يرضى هذه الاجرة في اسبوع

٩ — وارتفاع الاجور ينتج غلاء المعيشة وكثرة النفقة بحسب ناموس الأخذ والعطاء . فينفق المرء عن سعة ليتمتع بثمرة كسبه . فينتج هذا التمتع زيادة في النفقة ايضاً . ويصبح همّ الناس في زيادة الكسب ليقدروا على تلك النفقة والا ديسوا دوساً فتشتد عزيمتهم في العمل لزيادة كسبهم واتقاء الحاجة . ومصيبتهم هذه من اسباب نشاطهم وقوتهم . ورب شر أنتج خيراً

١٠ — أضف الى تأثير الوسط في هذا الزحام الهائل تأثير الجوّ ايضاً وهو ما يسمونه (تاثير الاقليم) . وهذا التأثير ظاهر كل الظهور في انحاء الولايات المتحدة نفسها . فانه لا يخفى ان في هذه الولايات اربع ساعات كل ساعة متأخرة عن الأخرى ساعةً . وبعبارة أخرى نقول ان فيها الصيف والشتاء والربيع والخريف في وقت واحد . فبينما يكون الزمهرير في ولاية نيويورك الشرقية يكون حر الصيف في ولاية تكساس الجنوبية واعتدال الربيع في ولاية كاليفورنيا الغربية . والولايات الباردة الشرقية (نيويورك بنسلفانيا اوهايو ماس الخ) هي الولايات الاكثر عمراناً والاعظم مدنيةً والاشد نشاطاً وقوةً . وكما خصّت ارض الولايات المتحدة بصفات جيولوجية ومتربولوجية ليست لغيرها (١) قد خُصّ جوها أيضاً

(١) سنشرح ذلك في اثناء الكلام عن غرائب ارضها وعجائبها كالبحيرات والانهر

بصفات غير اعتيادية . فان الطبيعة فيها شديدة قاسية وأحداثها تتخذ صوراً هائلة . فالزوابع تشتد فتخرب عشرات من البلدان في يوم واحد والارض تزلزل زلزالها فتهدم مدينة كاملة (كسان فرنسيسكو) . والناس يموتون في الصيف من فرط الحر وفي الشتاء من شدة القر . فجو كهذا الجو يساعد (مبدأ الانتخاب الطبيعي) فلا يعيش فيه الا الاقوياء الاصحاء . وهو يزيد قوتهم وصحتهم متى احتملوا المعيشة فيه . و بالتالي يزيد نشاطهم .

١١ — بقيت هناك أسباب أخرى عديدة نجملها هنا اجمالاً لان تفصيلها سيرد في أثناء كلامنا على عظائم اميركا وعجائبها فضلاً عن ان تفصيلها يطيل الموضوع اطالة لاتحتملها فصول المجلات . فمنها (اولاً) المدارس الابتدائية الالزامية التي تمزج ابناء جميع العناصر والمذاهب وتجعلها امة واحدة (انظرة الفقرة السابعة) والمدارس العليا العلمية والصناعية والتجارية والزراعية التي تكمل فعل المدارس الابتدائية وذلك بتعليم أبناء الامة تعليماً عملياً يطلق ايديهم وعقولهم معاً لا كاكثر مدارسنا الشرقية التي (تطلق العقول وتغل الايدي) . ومنها (ثانياً) تقديس مبداء العمل وعدم الاستحياء فيه . وهذه مزية كبرى لاميركا واهلها والمهاجرين اليها . فان المهاجر الاديب المهذب في المدارس يستحي في بلاده ان يكون مثلاً عاملاً في احد المعامل ولكنه في اميركا يرى ان روح البلاد كلها عمل في عمل وكل عمل شريف عند أهلها حتى اصغر الحرف والمهن فتسري اليه هذه الروح ويعمل مع العاملين وان لم يعمل طوعاً عمل كرهاً فراراً من الفقر . كان في الباخرة التي سافرنا عليها من اوروبا الى اميركا شاب مهذب فرنسوي فبعد وصولنا الى نيويورك باسبوع وجدناه يخدم في مطعم فرنسوي مشهور هناك وقد احفى شاربيه الجميلين وهو يكسب من راتبه ومن هبات المترددين على المطعم ٢٥ جنيهاً في الشهر . ثم كم من مرة رأينا سائق عربة شحن قذر اللباس واليدين تحييه في الشارع بابتسامة ونظرة فاتنة فتاة انيقة اللباس رشيقة الحركات يطلع البدر من قميصها فكانها من طبقة السيدات المترفات ولكنها

المعدنية الباخرة على الدوام ومغارة مموث المشهورة في ولاية كنتكي وطولها ثلاثمئة كيلومتر في جوف الارض وفيها آكام واودية ودهاليز وشقوق وساحات ولم يكتشف بعد الاجانب منها . والاخاديد المنفرجة في مكان واحد تلفظ على الدوام ليلاً ونهاراً بخاراً وغازاً وماءً بدرجة الغليان . وتمخض ارضها بلا انقطاع تقريباً كأنَّ اعصابها اعصاب فتاة شديدة التأثر لم تخمد الايام حدتها بعد . وغير ذلك من الغرائب التي يلذ تفصيلها . والسياح يقصدونها افواجاً لمشاهدتها .

في الحقيقة صديقته او صديقة اخته او خطيبته او اخته او قريبة له . فهذا السائق يداه في النهار في العمل الخشن الشاق الذي ليس بالنظيف ولكنه بعد انصرافه منه شاب يسكن بيتاً نظيفاً و يعيش معيشة نظيفة مرتبة و يقرأ الجرائد والمجلات و يتردد مع خطيبته على المراسح والمتنزهات بملابس نظيفة جميلة كأنه (خواجا اوافندي) كما نقول في بلادنا . ومنها (ثالثاً) تعريفتهم الجمركية المشهورة التي بنت في بلادهم دون السلع والبضائع الاجنبية سوراً من حديد فراجت عندهم مصنوعاتهم الوطنية رواجاً عظيماً امكنهم معه ان يتحكموا في رفع اثمانها وزيادة اجور عملتهم وربح الارباح الطائلة . ومن البضائع الاجنبية ما يضربون عليه في الجمرك ٦٠ في المائة ضريبة ليؤذن بادخاله . فالجزر مد البضائع الاجنبية عن بلادهم ونمت صناعتهم بهذه الحماية الهائلة التي يمكنهم معها ان يبيعوا مصنوعاتهم في بلادهم باثمان ارخص من المصنوعات الاوروبية التي تضرب عليها تلك الضريبة . وبسبب نمو صناعتهم كثرت مصنوعاتهم وحاصلاتهم فعظمت تجارتهم واصبحت تلتمس لها منافذ الى الخارج وتزحم تجارة العلم اجمع . ومنها (رابعاً) عنايتهم بتقوية أبدانهم كعنايتهم بتقوية نفوسهم وعقولهم وذلك بالرياضات والالعاب البدنية في المدارس والكليات والاندية الخصوصية والساحات العمومية . وكثيرون ينسبون النشاط الاميركي وقوته الى تعلقه الشديد بهذه الرياضات والالعاب وهذا موضوع سنفرد له فصلاً خاصاً لانه من الاهمية بمكان . ومنها (خامساً) حكمهم انفسهم بالطريقة الوحيدة التي تنطبق على اخلاقهم ومبداء هم الاستفرادي (اند يفيدوالسم) ونعني بها طريقة الاستقلال الاداري لكل ولاية من الولايات . فان لكل ولاية مجلسين نيابيين ودستوراً خاصاً بها وما الحكومة العليا في واشنطن العاصمة ومجلسا الشيوخ والنواب فيها الا واسطة بينها اي بين ولاية و ولاية من جهة و بين الولايات كلها وسائر الدول من جهة اخرى . — وفوق ذلك كله نعمة الحرية المطلقة الى اقصى حدودها — وعلى الخصوص الحرية الشخصية وفضيلة الاعتماد على النفس اللتان تبثان في نفوس الناشئة منذ الصغر فتكونان (كالنقش في الحجر) . فانك اذا عاشرت فتيانهم وفتياتهم عليك ان تسلك معهم كما يسلك مع الكبار لامع الصغار لاعتدادهم بانفسهم واستقلالهم ومعرفتهم حقوقهم . وقلما تكتسب ثقتهم وودادهم وصداقتهم بالهدايا والالاعيب كما تكتسبها بمراعاتك استقلالهم الشخصي واكرامهم كما يكرم الكبار .

فلهذه الاسباب كلها نشأت في الولايات الاميركية المتحدة امة نشيطة قوية صرفت همها الى العمل وكسب المال لتعيش في سعة وسعتها هذه جعلت شعبها رضيّ

الاخلاق مطمئناً ساكن النفس (طيب القلب) مستقيم الطباع لسذاجته بل اشد استقامة من شعب اوروبا كما ذكر بعض السياح الاوروبيين في كتبهم . ولما كان همّ كسب المال مقدّماً لدى الاميركيين على كل همّ اصبحت قيمة الانسان عندهم ما (يكسبه) لا ما (يحسنه) كما قال الشاعر العربي . وفي الحقيقة ان (الكسب) و (الاحسان) في اميركا امران قلّما يلتقيان . فكل شيء يُعمل فيها انما يُنظر الى سرعة عمله وعظمته وضخامته لا الى اجادته واحسانه واتقانه . الاتقان ؟ ليس لديهم وقت للاتقان . وهب ان لديهم وقتاً لذلك وقوة عليه فهم لا يضيعونها في هذا الاتقان لان الغرض كسب المال من ذلك العمل لا اتقانه لذاته والبلوغ به الى اقصى حدود الاجادة . فكأنهم في جميع أعمالهم قوم على سفر عليهم انهاء عملهم قبل السفر . انظر الى آلاتهم الصناعية التي يصنعونها وسلمهم وسائر مصنوعاتهم وجرائدهم وآثار مصوريهم وكتابهم ترَ على كل ذلك أثر السرعة والضخامة والعظمة وعدم المبالاة بالاتقان . والغريب انهم قدروا حتى الآن بهذه الطريقة على انشاء أعظم صناعة وتجارة وزراعة قامت في العالم . ولكن اذا كانت هذه السرعة والعظمة والضخامة لم تُكسبهم حتى الآن جمال الاتقان الفني فانها طبعت في نفوسهم طابع النشاط والقوة والعظمة وجعلتها خلقاً لهم . ومن يعلم ان هذه القوة والعظمة والنشاط لا تضعف متى بلغوا طور الاتقان وتخلت نفوسهم تلك النخافة والرقة والكياسة الملازمة لجمال الفنون . اليست هذه الصفات الجميلة معدودة منذ الآن لديهم ولدى بعض المفكرين هَرَماً وفقدَ حيوية ؟ ... الا يستشهدون على ذلك بقولهم ان الثمرة لا تحلو وتجود الا قبيل سقوطها ...

ولكن الولايات المتحدة لم تعظم تلك العظمة للاسباب التي تقدمت لو لم يكن هنالك سبب آخر لم نشر اليه بعد . وهو انفرادها في قارة اميركا وعدم وجود جيران لها اقوياء ينازعونها البقاء و يضطرونها الى التسلح وتجنيد شعبها للدفاع عن نفسها . فانه بينما كانت اوروبا تنوء بحملها الثقيل (السلم المسلح) وتنفق ما في خزائنها من المليارات على هذا التسليح كانت الولايات المتحدة تنفق ما في خزائنها على اصلاح احوال شعبها . ان جيش فرنسا العامل في زمن السلم ٥٠٠ الف رجل وجيش الولايات المتحدة العامل ٦٠ الف رجل ... مع ان عدد سكانها ضعف عدد سكان فرنسا ومساحة ارضها اضعاف ارض هذه . وان الجيش الاميركي العامل لا يزيد عدده عن عدد جيش ركفلر فان لدى ركفلر ٦٠ الف مستخدم يستخرجون له زيت البترول من ارض الولايات المتحدة .

*
* *

طال هذا المقال فوق ما أردنا وقد كتبناه وهذه التذكارات كلها ما زالت حديثة العهد في نفسنا . وقد صرفنا في كتابته ثلاثة ايام استعدنا فيها في الذهن جميع شؤون الولايات المتحدة وتذكاراتها شأنا شأنًا وتذكارا تذكاراً لنستخرج هذه الخلاصة منها . وكان مرتب الحروف في اثناء ذلك يغضب و يصيح و يطلب التتمة كأنه ظن ان درس مدنية متشعبة الاصول والفروع عظيمة الاثر والعين كالمدنية الاميركية مما يسهل استخراجه وتسطيره في ساعة او يوم . و بعد مراجعتنا في ذهننا شؤون اميركا كلها حين كتابة هذا الفصل لم يلذ لنا شيء كمطالعة وداعنا لاميركا الذي كتبناه في الطريق بعد الرحيل عنها وهو خطاب الى تمثال الحرية العظيم المنصوب في مرفاء نيو يورك يستقبل الواردين و يودع الصادرين بنور القبس المرفوع بيده الهائلة وقد مرّت بنا السفينة امامه حين خروجها بنا من المرفاء (١) وقد ضاق المجال عن نشر هذا الوداع في هذا الجزء . فموعدنا به الجزء التالي ان شاء الله .

عقدة المسائل الاجتماعية

أثار الكلام فيها سعادة احمد فتحي باشا زغلول وكيل نظارة الحقانية بكتابه الجديد (روح الاجتماع)

بحث هذا وقته

اهدى الينا جناب الفاضل خليل بك صادق صاحب (مطبعة الشعب ومكتبته ومسامراته) نسخة من كتاب (روح الاجتماع) الذي ظهر في الشهر الماضي وهو من تأليف العالم الدكتور غوستاف لوبون الفرنسوي وقد عربه سعادة المفضال احمد فتحي باشا زغلول وكيل نظارة الحقانية . وقد أذكرنا ظهور هذا الكتاب العلمي النفيس معرباً بقلم سعادة وكيل نظارة الحقانية قولاً قاله افلاطون في (جمهوريته) وهو : ان اسعد الامم الامة

(١) كتبنا هذا الخطاب على طريقة (الخطبة لدى شلالات نياغرا) التي نشرناها في الجزء الثامن للسنة السابقة